الطرق الصوفية والسلطة العثمانية في الجزائر بين 1520 - 1830

قيداري قويدر،
جامعة معسكر.

ملخص: تأتي دراستنا للطرق الصوفية ومواقفها من السلطة العثمانية في الجزائر – ولاءا وتصديا – لتسليط الضوء على هذا الجانب من العلاقات المتجاذبة بين الطرفين، من خلال قراءة في بعض المصادر التاريخية، وقد كان د/ أبو القاسم سعد الله كثيرا ما يؤكد في بعض كتاباته التي كانت تعني بالتاريخ الثقافي للجزائر إلى الحاجة الملحة في تناول هذه الناحية حيث قال: "إن علاقة العثمانيين بالطرق الدينية في الجزائر علاقة معقدة وتحتاج إلى دراسة مستفيضة وغير متحيزة". (سعد الله،أ. ج1، 1981: 185)

Résumé

Notre étude abordera les positions des confréries soufies à légard de la puissance ottomane en algérie. En effet, notre propos est de mettre dexpliciter les relations ces Ecoles de pensée et lordre politique en place à travers un certain nombre de sources historique. Ainsi Abu al-Qasim Saad Allah était un de ceux qui ont souligné limportance daborder cette question dans bon nombres de ces écrits sur lhistoire culturelle de lAlgérie. Rappelons ce quil a notifié à ce propos que: «la relation entre les ottomans et les confréries religieuses en Algérie est complexe et a besoin dètre étudiée de façon profonde et non perplexe “A. Saadallah,1981:185”»

تمهيد:

لقد أفاض المؤرخون في وصف سلطة الأتراك العثمانيين، كما وصفوا أجهزتها ونظامها الإداري، وأشاروا أيضا إلى بيعة أعيان القبائل الجزائرية وولاء بعض شيوخ الطرق الصوفية، وإذا ما اكتفى الباحث بهذا النوع من المراجع والمصادر فإنه يخرج مقتنعا بوجود تلك السلطة وقوتها، ولكن قراءة بسيطة في مصادر أخرى يمكن أن يتبين منها الباحث الوجه الآخر لعلاقة المدّ والجزر التي كانت في مرات كثيرة تصل حد الاصطدام العنيف بين حكومة الأتراك العثمانيين وبين شيوخ الطرق الصوفية وأنصارهم من القبائل والمريدين.

إن ما يسترعي الانتباه عند دراسة الفترة العثمانية في الجزائر، هو أن الطرق الصوفية قامت بدور على قدر كبير من الأهمية في تثبيت حكم الأتراك، ثم في سقوط حكمهم أيضا، فالثورات التي انتشرت شرقا وغربا، والتي غالبا ما كان وراءها شيوخ الطرق الصوفية، كان أول ما استهدفته هو إضعاف حكومة الجزائر العثمانية وإسقاطها، وهناك صنف ثالث، أصحاب الموقف الوسط، وهم الصوفية الذين لم يؤيدوا الأتراك العثمانيين تأييدا كاملا، ولم ينقموا عليهم كل النقمة؛ بل وقفوا يؤيدونهم تارةكمسلمين مجاهدين ما داموا عادلين، وتارة أخرى ينصحونهم عندما ينحرفون أو يسيؤون الحكم.

1- الأتراك العثمانيون والتصوف الإسلامي:

علاقة العثمانيين بالتصوف ورجاله علاقة وطيدة، بل شكّل الفكر الصوفي أحد البنيات الأساسية في المنظومة العقائدية والسياسية للدولة العثمانية: فالدراويش كانوا وراء تقدّم الأتراك في أناضوليا وفي احتلالهم القسطنطنية، وكانوا هم الروح التي تحرّك الجندي التركي للجهاد والاستماتة، ومن أهم الدراويش الذين نسب لهم ذلك الحاج بكداش (ق7ه/13م) وأتباعه المعروفون (بالبكداشية)، وقد وصلت طريقتهم أوجّها في القرن العاشر، عصر سليمان القانوني وعصر دخول العالم العربي ومنه الجزائر، في الدولة العثمانية، وكانت لهم مراكز ونظم سرّية وعلنية في مختلف أنحاء الدولة وكانت الدولة تخشاهم أحيانا، بعد أن كانوا ساهموا في تأسيسها.(سعد اللّه،أ. ج1، 1981: 181)

ويهمنا من هذه العلاقة بين التصوف والدولة العثمانية علاقة الدراويش بالإنكشارية، ذلك أن الكتابات تذهب إلى أن الحاج بكداش هو الذي أسس النظام الانكشاري، وهو الذي أعطى الجنود اسمهم وألبسهم لباسهم المميز، ولم يحن القرن (10ه/16م) حتى أصبح البكداشية هم الذين يسيطرون فعلا على الانكشارية، وهم الذين يستقبلونهم ويؤاخون بينهم دينيا وعسكريا.(سعد اللّه،أ. ج1، 1981: 182)

وقد سار السلطان أورخان التركي (ق8ه/14م) مع فرقة الإنكشارية إلى الحاج بكداش، وطلب منه أن يباركها فوضع الشيخ يده على رأس أحد جنودها ودعا لهم قائلا: "فليكن اسمهم إنكشارية، اللهم اجعل

وجوههم بيضاء وسيوفهم فواصل، ورماحهم قاتلة، واجعلهم منتصرين قاهرين لأعدائهم ".(الزوبي، م.2004: 183)

وتوثقت العرى بين الطريقة البكداشية وأقوى جيش في تركيا حينها، وكانت التكايا البكداشية المنتشرة في أرجاء السلطة العثمانية موئلا للإنكشارية، وكان لكل ثكنة عسكرية إنكشارية مرشد بكداشي. (الزوبي، م.2004: 184)

وليس غريبا أن يكون التصوف في عهد السلاجقة من أهم الموضوعات التي يدور البحث حولها إذ أن نظام الملك –وزير ملكشاه السلجوقي- كان يحب الصوفية ويراعيهم أحسن رعاية، وكان يعظّمهم ويصفهم بأنهم جيش الليل الذي يحرس غيره من الجيوش.(عناية اللّه إبلاغ، أ.1987: 52)

بالإضافة إلى الطريقة البكداشية أو(البكتاشية) شاعت في الدولة العثمانية الطريقة النقشبندية، نسبة إلى مؤسسها محمد بهاء الدين البخاري الشهير بنقشبند(ق8ه/14م)، والطريقة المولوية، والطريقة القادرية نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (ق6ه/12م).

2- موقف حكومة الجزائر العثمانية من الطرق الصوفية:

فكرة التصوف والطرق الصوفية باعتبارها ظاهرة اجتماعية حضارية عامة في المجتمع الاسلامي كانت قد سبقت الأتراك العثمانيين في الجزائر، حيث انتشرت أفكار الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (بلاثيوس،أ.1979: 275- 276)، وانتشرت أذكار سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني وكراماته (الجيلاني، ع.2002: 19- 46) (فيلالي،م ط.1976: 35- 39)، وشاع التصوف وازدهر بعد ذلك بفضل ثلة من المشايخ، منهم عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي وأحمد زروق، ومحمد الهواري، وابراهيم التازي، وأحمد بن يوسف الملياني (الحفناوي، أ.ج1، 2. 1991:).

وحول خارطة انتشار الطرق الصوفية في الجزائر يقول أبو القاسم سعد اللّه: "نشير من الناحية الجغرافية إلى أن الغرب الجزائري قد انتشرت فيه الطريقة الشاذلية والقادرية والتجانية والطيبية والدرقاوية والزيانية، بينما شاعت في الشرق الجزائري الطريقة الرحمانية

والحنصالية والشابية (والقادرية والشاذلية أيضا)." (سعد الله، أ. ج1، 1981 : 184).

ولسنا ندري! لماذا لم يشر شيخنا سعد الله في هذا السياق إلى طريقتين صوفيتين نعتقد أنه كان لهما امتداد وحضور في الأوساط الشعبية في الغرب الجزائري وجنوبنا الغربي بخاصة؟ هما: الطريقة الشيخية (تنسب إلى سيدي عبد القادر بن محمد المدعو "سيدي الشيخ، صاحب "الياقوتة" في التصوف، 939هـ- 1533م/ 1025هـ- 1616م)، والطريقة الكرزازية أو الموساوية (تنسب إلى سيدي أحمد بن موسى (ولد حوالي 908هـ/1502م بمنطقة كرزاز بالجنوب الغربي لفقيق، وتوفي عام 1017هـ/1608م). (Rinn.l. 1884:549) .

الأتراك العثمانيون كانوا يعرفون أنهم غرباء عن الجزائر لغويا وثقافيا، ولكن كانت هناك نقاط تقاطع مشتركة، عرف العثمانيون كيفية استثمارها وهي: الدين (ومنه التصوف كممارسة وسلوك) والجهاد ضد الغزاة الأوربيين وعلى رأسهم الاسبان، لذلك راحوا يبحثون عن حلفاء لهم في الجزائر وفق هذه الأرضية، ولم يجدوا أحسن من رجال الدين والتصوف تحمسا لذلك.

وكان الجندي الانكشاري الذي يأتي إلى الجزائر يحمل معه تلك الأفكار الصوفية التي تشبّع بها من الطريقة البكداشية -كما أسلفنا- ويجد فضاء صوفيا مماثلا يتجلى في هؤلاء المرابطين الذين كانوا يحفّونه بالبركات والدعوات لممارسة الجهاد والغزو في عرض البحر المتوسط.

وعندما ندرس فئة العلماء والمرابطين سنلاحظ اعتماد الأتراك العثمانيين على أهل التصوف سواء كانوا في المدن أو في الريف، فكان تقربهم منهم عن عقيدة فيهم في معظم الأحيان، تماما كما كان يفعل آباؤهم وزملاؤهم في أناضوليا والبلقان عندما كانوا يأخذون بركات الدراويش لينطلقوا نحو الجهاد. (سعد الله، أ. ج1، 1981 : 187)

وكان تيار التصوف في طريقه ليصبح قوة اجتماعية يحسب حسابها، بعد أن تجاوز إطار التصوف الفردي إلى تصوف شعبي منظم، وهو الأمر الذي كان سيمنحها بعدها الاجتماعي وبالتالي السياسي.

وشاع في الجزائر التحالف بين الأتراك العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متّبعة، فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق والمغرب..وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا.. (سعد اللّه، أ. ج1، 1981: 472)

فسياسة السلطة العثمانية كانت واضحة في التقرب من رجال التصوف في الجزائر استقطابا واحتواء بشتى الوسائل، كبناء الزوايا والمقامات، وكان الباشوات والبايات يقومون احتراما لمقدار شيوخ التصوف ويغدقون عليهم الهدايا والمنح إرضاء لهم، ويعفون البعض من دفع الضرائب، هكذا كانت تبدو العلاقة بين المسؤولين العثمانيين وبعض شيوخ الطرق الصوفية، وكل طرف كان يستفيد من الآخر.

3- المواقف المختلفة للطرق الصوفية من حكومة الجزائر العثمانية:

أ- الموقف المؤيد:

من بين الشخصيات الصوفية التي كانت مصدرا لشرعية السلطة العثمانية في بداياتها الأولى بالجزائر نذكر الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الذي التف حوله الناس كقطب من أقطاب الطريقة الشاذلية (نويهض،ع.1983: 316)، والذي كان متعاونا مع الأتراك العثمانيين، ولعل هذا الموقف جاء كنتيجة لسوء العلاقة بين الشيخ الملياني وسلطة بني زيان التي أرادت التنكيل به، مما حدا به لأن يضع يده في يد عرّوج ويد أخيه خير الدين بربروس.

وكان الشيخ الملياني عموما كغيره من رجال التصوف مستعدّا للترحيب بالأتراك العثمانيين كمدافعين عن ديار الإسلام، راضيا بهم معتقدا بأنهم مسلمين ذوي صلابة وحزم، قادرين على ردّ خطر التدخل الخارجي، الذي بات يتهدّد البلاد والعباد.

ويبدو أن سيدي أحمد بن يوسف كان همه الأكبر أيضا مصير الجزائر المهدد من الداخل بالفوضى ومن الخارج بهجمات النصارى بسبب انحلال السلطة السياسية سواء في فاس أو في تلمسان أو تونس، وكان في ذلك تشجيعا للبرتغال ولاسبانيا لتنفيذ سياستهما التوسعية، وقد بدأ كلاهما يدوس الشواطئ الإسلامية في ظل ضعف المقاومة المحلية. (حاج صادق، م.1989: 103)

أعجب الشيخ الملياني بالأتراك العثمانيين الذي استبسلوا في الدفاع عن حرمات الوطن، ودعا لهم بالنصر والتمكين، وقد تلقى من عروج رسالة ودّية وهديّة قدرها أربعة آلاف دينار وبعض العروض النفيسة فشكره بأن بعث إليه بالدعاء الصالح. واستقبل خير الدين بعد ذلك ابنه البكر "محمد بن مرزوقة" بحفاوة خاصة وأغدق عليه من الأموال، وسمّاه أمير الحجّاج، وقيل إن الدّاي حسين - آخر الباشوات- كان متزوّجا بإحدى حفيدات سيدي أحمد بن يوسف الملياني.(حاج صادق،م.1989: 104- 105).

وقد ظل الملياني وأتباعه مؤيدين للأتراك العثمانيين كما حافظ هؤلاء على التزامهم له ولطريقته ولأولاده وأتباعه، ومن أصدقاء الملياني الذين كانوا أيضا على علاقة طيبة بالأتراك العثمانيين "الشيخ محمد بن عبد الجبار المسعودي الفجيجي التلمساني"، فقد كان شاعرا صوفيا وصاحب كرامات، على ما يذكر مترجموه، خصوصا صاحب البستان. (ابن مريم. 1986 : 287).

وكان من أتباع الملياني وتلاميذه أيضا "محمد بن شعاعة"، وكان مثله متعاونا مع الأتراك العثمانيين، وكانوا هم بدورهم يعظمونه ويعفونه من الضرائب ويعطونه من جزية أهل الذمة، كما أوقفوا عليه الأوقاف. وكان من تلامذته الشيخ الشاعر "الأخضر بن خلوف" الذي قاوم الاسبان، وقد عرف بقصائده في مدح الرسول "محمد" عليه الصلاة والسلام، واشتهر أيضا بقصيدته المعروفة بـ "قصة مزغران" التي رصد فيها معركة أهل مزغران ضد الغزاة الإسبان عام 965ه/1558م، ودامت هذه المعركة ثلاثة أيام، خسر فيها الجيش الإسباني عشرين ألفا بين قتيل وجريح وأسير، كان من بينهم الكونت دالكودات Conte D’Alcaudète قائد الحملة (الزياني، م. 1978: هامش، ص: 60، 146) (سعد الله، أ. ج1 ، 1981: 471)

ب- الموقف الوسط:

ومن أصحاب الموقف الوسط يمكننا ذكر الشيخ العبدلي وتلميذه محمد بن سليمان مؤلف كتاب "كعبة الطائفين" ،فقد جعل الشيخ العبدلي سكناه بباب الجياد بالقرب من مسجد الوزّان الذي كان يؤمّ

الناس فيه، بمثابة زاوية يلجأ إليها المضطهدون، مسلمون وذمّيون، خاصة من جور الأتراك العثمانيين وظلمهم، وهو ما ينقله لنا المؤلف في هذا النص: «حضرت يوما مع الشيخ العبدلي في داره من حارة باب الجياد، وقد اجتمع عنده خلق كثير، مسلمون وذميون، هاربون من جور الولاّة، يطعمهم ويسقيهم، ويشفع كل سبت فيهم، حتى يقضي اللّه حوائجهم على يديه..» (محمد بن سليمان، ص. (مخطوط) "ج1"، ص: **14**).

وقد أشاد أيضا صاحب "كعبة الطائفين" بمواقف شيخه العبدلي الذي كان ينجد المسلمين وأهل الذمة عند ارتكاب الأتراك العثمانيين في تلمسان مواقف تعسفية، وأنه كان يذهب إلى القائد التركي محمد بن سوري في مقره بالمشور يعظه ويجزره ويطلب منه مطالب في صالح أهل البلاد، كما حدث أثناء الفتنة أو الثورة الأولى التي وقعت بين أهالي تلمسان والأتراك عام **1035**ه/**1625**م، وقد كان محمد بن سليمان حاضرا في هذه الوساطة بمعية شيخه. (محمد بن سليمان، ص. (مخطوط) "ج2" ص: **16**).

وجدير بالذكر أن الشيخ العبدلي توفي سنة**1037**ه/ **1627**م في طريق عودته من الجزائر أثناء وساطته ومساعيه لإخماد نار الفتنة بين أهالي تلمسان والأتراك العثمانيين، كما جاء في مخطوط "كعبة الطائفين". يقول المؤلف محمد بن سليمان:«.. ومات عندنا قطب عصرنا العبدلي في طريق الجزائر لتسكينه الفتنة المذكورة- بين أهالي تلمسان والأتراك- .. وبعد موته بنحو سنتين، قامت فتنة أعظم من الأولى..». (محمد بن سليمان، ص. (مخطوط) "ج2"، ص: **15**).

وتذكر بعض المصادر أن باي قسنطينة حسن بوحنك كان لا يعتقد في الأولياء وأنه كان عنيدا متمردا فلقيه المرابط الشيخ الشليحي فوقعت له معه كرامة مذكورة في مكانها، فما كان من الباي إلا أن تراجع عن موقفه من الأولياء والصالحين وأعطى للمرابط الشليحي قصرا عرف فيما بعد باسم "دار الشليحي"، كما أنشأ له الباي المذكور زاوية في أولاد عبد النور وأعفاها من الضرائب.

وأمثال الباي حسن بوحنك كثير في العهد العثماني، ذلك أن العقيدة في رجال الدين، خصوصا المتصوفة "المرابطين"كانت قوية عند العثمانيين، - كما أسلفنا- فالبحارة منهم كانوا يذهبون عند

خروجهم للغزو إلى الأولياء والصالحين لنيل بركاتهم، وكانوا يطلقون من البحر عند ذهابهم وإيابهم طلقات مدفعية معينة احتراما لهم، وإذا هرب منهم أحد الجناة إلى قبة أو ضريح ولي فإن اللاحقين به يتوقفون عند ذلك ولا يتبعونه. (سعد الله، أ. ج1، 1981: 473- 474)

ث- **المواجهة والاصطدام :**

هناك ثورات عديدة وقعت في العهد العثماني، وكانت هذه الثورات متعددة الوسائل والغايات فبعضها كان له طابع ديني، وبعضها كان له طابع سياسي "وطني"، وبعضها كان له دوافع اقتصادية، كما أن البعض منها كان نتيجة تمرد شخص حبا في المغامرة أو طمعا في الجاه والسمعة، ومن هذه الثورات ما كان قصير المدى محدود المكان، وما كان طويل المدى واسع المجال، بالإضافة إلى أن الثورة كانت أحيانا ثورة طريقة صوفية بأسرها أو ثورة قبيلة كاملة، وأحيانا كانت ثورة طبقة اجتماعية معينة، وأحيانا ثورة جهة وأخرى ثورة عائلة. (سعد الله، أ. ج1، 1981: 206)

وسنسوق الآن نماذج من هذه المواجهة، التي كان المتصوفة ورجال الطرق الصوفية وقودا لها، والتي انتهت في أحيان كثيرة بأشكال أكثر دموية وتراجيدية:

- من شيوخ التصوف الذين اصطدموا بالأتراك العثمانيين **الشيخ بن حواء عبد الله**، وصفه الآغا بن عودة المزاري بـ العلامة الكبير القدوة الشهير الجامع بين العلم والعمل، فقد اتُّهم الشيخ عبد الله مع الشيخ فرقان الفليتي بمحاولة القيام بالثورة على الباي فكانت النتيجة أن تمت تصفيتهما، وتم دفنهما في قبر واحد بمنطقة سيدي البشير بمدينة وهران، ثم تم نقل رفاتهما في أبريل 1284ه/1868م إلى منطقة المطمر. (المزاري، آ. ج1، 2009: 351) (مفلاح، م. 2008: 71)

- ومن الطرق الصوفية الجزائرية التي دخلت في مواجهات دامية مع الأتراك العثمانيين، **الطريقة التجانية التي أسسها سيدي أحمد التيجاني** المولود بناحية عين ماضي القريبة من مدينة الأغواط، عام 1159ه/ 1737م. وقد انطلق أحمد التجاني في رحلات طويلة بين مختلف البلدان والحواضر، فزار تلمسان وتوات والسودان الغربي وتونس والمغرب الأقصى

مؤسسا في كل مكان الزوايا ومعيّنا المقاديم لنشر تعاليم الطريقة التجانية. (فيلالي، م ط. 1976: 46- 48)

وقد ظهرت دعوة التجاني في الوقت الذي بدأ الأتراك العثمانيون يتوجسون من نشاط الطرق الصوفية عموما، ذلك أن ظهور الطريقتين الطيبية والدرقاوية في المغرب الأقصى وعلاقتهما السياسية بالحكم هناك، وامتداد نشاط الطريقتين إلى الجزائر، وتردد أحمد التجاني بين فاس وتلمسان و مدن الصحراء؛ كل ذلك قد أثار مخاوف الأتراك العثمانيين في الجزائر. (سعد الله، أ.ج1، 1981 : 519) مما دفع باي الغرب الجزائري محمد الكبير إلى غزو عين ماضي والأغواط عام 1199ه/1784م وفرض عليهما لزمة سنوية، ونتيجة الخلافات التي ثارت ضد أحمد التجاني من قبل أبناء عشيرته أو من طرف الحكام الأتراك، ترك الصحراء نهائيا سنة 1213ه/1798م واستقر في فاس في حظوة سلطان المغرب سليمان، إلى أن توفي عام 1230ه/1815م. (فيلالي، م ط. 1976: 48- 49)

ونظرا لاستمرار الحملات التركية العثمانية ضد الزاوية التجانية الأم بعين ماضي ومحاصرتها من طرف بايات وهران والتيطري، فقد قام ولدا أحمد التجاني: محمد الكبير وأخوه محمد الصغير بثورة بين سنتي 1241ه- 1826م/1242ه- 1827م كرد فعل للإستفزاز والظلم التركي، لكن ثورتهما قد باءت بالفشل، حيث انتهت بموت محمد الكبير سنة 1242ه/1827م. (فيلالي، م ط. 1976: 49)

وقد تعرض كل من الآغا بن عودة المزاري وعبد الرحمن الجيلالي إلى تفاصيل التقاء الجمعان في تلك المعركة، وذكرا كيف اصطدم التجانيون بجيوش باي وهران حسن بن موسى، حيث كانت مقبلة نحوهم من جهة غريس فتشتت جمع التجاني وفر عنه أصحابه وبقي هو في طائفة قليلة من أتباعه لا يتجاوز عددها الثلاثمائة نسمة، فتقهقر وقبض عليه فقتلوه فيمن كان معه وفصل رأسه عن جسده وقطعت يده، ونقل رأسه إلى العاصمة حيث أصبح مصلوبا بها تجاه باب الجديد، وبعث بسيفه إلى السلطان محمود باسطمبول. (المزاري، آ. ج1، 2009: 357- 361) (الجيلالي، ع. 1982: 336)

- ومن ثورات رجال التصوف، **ثورة درقاوة**، والطريقة الدرقاوية تنسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي (ق12ه/18م)، تفرعت عن الطريقة الشاذلية، وقد اشتهر العربي الدرقاوي بالاستقامة والزهد في متاع الدنيا واحتقار السلطان (الوظائف)، وقد كان الشيخ العربي الدرقاوي من متصوفة المغرب الأقصى، ولكن أتباعه كانوا منتشرين أيضا في الجزائر وخصوصا في غربها. وكان مقدم طريقته في وهران ونواحيها هو الشيخ عبد القادر بن شريف (أصله من نواحي فرندة)، وقد لقي مؤسس الطريقة العربي الدرقاوي بالمغرب، وعاد بعد ذلك لينشر تعاليمها، وقد لقيت دعوته نجاحا كبيرا، حيث ذاع صيته بين القبائل وأقبلت عليه تبايعه وتؤيده، مما ساعده لاحقا على القيام بالثورة ضد بايات الغرب الجزائري دامت أكثر من عشر سنوات. (فيلالي، م ط. 1976: 53، 54)

وقد بلغ عدد زوايا الطريقة الدرقاوية حسب إحصاء لويس رين (L. Rinn) عام 1299ه/1882م ستة وثلاثون زاوية يشرف عليها 188 مقدما، أما عدد الأتباع والمريدين فقد بلغ 14842. يظهر هذا الإحصاء الذي قام فيه الباحث بمسح لمناطق واسعة من بلادنا – منطقة العاصمة ووهران وقسنطينة – على مدى اكتساح هذه الطريقة للأوساط الشعبية. (Rinn.L.1884. p: 549)

وقد لعبت الطريقة الدرقاوية دورا سياسيا هاما في المنطقة حيث لقيت تشجيعا كبيرا من سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان الذي اتبع في سياسته الاعتماد على رجال الدين والأشراف بتقريبهم إليه، فكان انتشار أتباع الطريقة بالمغرب الأقصى وغرب الجزائر بمثابة حصن يحمي سياسة سلاطين مراكش من خطر الأتراك بالجزائر. (فيلالي، م ط. 1976: 54)

وعندما سمع باي وهران محمد المقلش، بحركة ابن الشريف توجس منها خيفة وأخذ يستعد للقضاء عليها، ويبدو أن الباي قد أحس أن حركة ابن الشريف الدرقاوية لم تكن دينية محضة، كما يدل عليها ظاهرها، فقد كان لها طابع سياسي يتداخل فيه المغرب الشريفي والجزائر العثمانية، ولعل ابن الشريف كان مجرد أداة لتنفيذ خطة سياسية ضد النظام العثماني فأراد هذا النظام حماية نفسه. ومهما يكن

الأمر فإن ثورة درقاوة في الجزائر قد غطت مناطق واسعة وهددت الوجود العثماني فيها بقوة، وقد جند لها الأتراك العثمانيون قوتهم ولا سيما بعد أن أدركوا غايتها السياسية البعيدة، ودارت معارك كثيرة، منها المعركة التي وقعت بين الباي محمد المقلش وطلبة ابن الشريف في المكان المعروف بفرطاسة - قرب معسكر- أدت إلى إنهزام جيش الباي، واستمر الدرقاويون في مقارعة الأتراك العثمانيين واستنزافهم، وقد كثر أتباعهم وأوصلوا البلاد إلى حافة الثورة العامة، ولم تنته الثورة إلا بعد إجراء اتصالات سياسية بين الجزائر والمغرب على المستوى الرسمي. (سعد اللّه، أ. ج**1**، **1981**: **218**- **219**)

وعانى من الثورة بعض العلماء والعامة ممن وقع بين نارين؛ السلطة والدين، كالعالم **الحافظ أبي راس الناصري** الذي كادت تأتي عليه رياح الثورة التي رصد أحداثها في كتابه الموسوم "درء الشقاوة في فتنة درقاوة"، والتي أرخ لها من وجهة نظر السلطة التركية الرسمية، كغيره ممن اشتهر بموالاته لحكم الأتراك، كحسن خوجة صاحب "در الأعيان في أخبار مدينة وهران"، والكاتب الخبير مسلم بن عبد القادر الحميري باش دفتر بايات وهران، الذي ترجم كتابه إلى الفرنسية أدريان دلبيش (Adrien Delpech) ونشره فصولا في المجلة الإفريقية لسنة **1874**. (الزياني، م ي. **1978**: **34**)

وقد **سجل الشعر الشعبي معركة فرطاسة** التي هزم فيها الباي ولم ينج بانفراده إلا متسللا على حين غفلة ممتطيا جواده من دون سرج قاصدا معسكر، إلا بشق الأنفس، قال الشاعر:

كي قصة الاجواد مع اتراك النوبـــة // يوم ان فْزَعهم ابن الشريف وْجَاو
ذوك اتراك الكرسي دهر فاتوا رهبة // قالوا الاجواد على حرمنا نزكـــاو
انعقد غاشي الاحرار عقد محبـــة // في فرطاسة شاو انهار واتلاقـــو
بالسيف و نار المشط و دق الحربة // ما لهيه اومنا عيطا اعقيد افنـــاروا
ذاك امقعشم ذاك يهوم بالحربابـــة // وافرايس الاتراك اعلى الطريق ابقاوا
اتغلبوا الاتراك او سلموا في الضربـة // اهل العدة البيضا كامـــل اتعراوا
دار الذيب العولة من لحم الأتراك

وأشار أيضا الآغا بن عودة المزاري إلى معركة فرطاسة ووصف تفاصيلها وما آلت إليه نتائجها، وتعرض أيضا إلى حروب درقاوة وما

أفرزته من أحداث، وساق شيء مما قيل في تلك المعركة من شعر نذكر منه هذه الأبيات:

فرطاسة يومها ترى الجنود بـــــه // ما بين قتلى وأسرى غير ناجينـــا
فالباي جاء بجيش لا نفاذ لـــــه // به يريد لقاء العدو باغينـــــا
فلم يحقق له سعي ولا أمـــــل // بل جاء جنده صفر الكف باكينا
فاليوم لابن الشريف عز فيه على // باي الأعاجم لولا الدين لا دينـــا

(المزاري، آ. ج1، 2009: 305- 324)

وقد اعتبر البعض أن هذه الثورة كانت من أسباب انهيار دولة الأتراك العثمانيين بالجزائر، حيث أنها فقدت ثقة معظم السكان. (الزياني، م ي. 1978: 4)

- ضيق الأتراك العثمانيون الخناق بعد ثورة درقاوة على زعماء آخرين من الطرق الصوفية ورجال الدين عامة، وكان من ضحاياهم **ابن قندوز التوجيني**، وهو من العلماء المشهورين بالتقوى والتصوف والعلم والتدريس، أشار إليه صاحب "المرآة الجلية" في معرض حديثه عن سيدي عدّة غلام الله، ونقل له مجموعة من الكرامات، ونعته بأنه "قتيل الترك بواد منتي" **(الجيلاني، ع. 1364ه: 274)**. ولا شك أن الشيخ ابن قندوز ساند الثورات التي كان يقودها رجال الطرق الصوفية ضد حكم الأتراك، ومنها ثورة درقاوة العام 1217ه/1802م، التي دامت عشر سنوات. والتي تلتها سنة 1241ه/1826م ثورة الشيخ أحمد سالم التجيني صاحب الزاوية التجانية.

وقد نظم في حقه الشاعر الشعبي ابن تكوك تلميذه الوفي منظومة من نوع "الغوثيات" رثى فيها شيخه ابن قندوز، جاء فيها:

ارحم شيخي بالقندوز // مريد الشيخ المعـــزوز
بالقندوز المزهـــــد // في وسط الطلبة عابد
لا بد في الذكر يمجد // يخدم ربي بالنيـــــة
في شهر الله صفـــر // دارت به العساكـــر
بالثلاثة مع الفجـــر // ولى في ايدين العدية
عام الخمسة والأربعين // توفى ليلة الاثنيـــن
فرحوا له الطائغـــون // الغابطون في الدنيـا

(الزياني، م ي. 1978: 10- 11)

في عام 1244ه/1829م هاجم جيش الباي حسن زاوية الشيخ محمد بن قندوز التي كانت عامرة بطلبته من أبناء البرجية والزمالة وبعضهم من

بني عامر والحشم وفليتة وبني شقران؛ أي جل أبناء منطقة الغرب الجزائري، لقد أرسل باي وهران ابن دهماء العامري الذي أخذ الشيخ بن قندوز مقيدا وقتله بمنطقة واريزان. (مفلاح، م. 2008: 33).

- وحول **انتشار بعض الثورات في إقليم قسنطينة** يذكر أبو القاسم سعد الله: "والواقع أن الثورات لم تكد تتوقف في إقليم قسنطينة حتى بعد أن استقر الوضع للعثمانيين، وقد كثرت هذه الثورات حتى أصبح من الصعب إحصاؤها وتحديد آمادها، فمنها ما كان يحدث داخل المدينة نفسها نتيجة تنافس العائلات، أو ظهور شخصيات صوفية طموحة، أو حوادث عامة تهز المدينة وتقسم الرأي العام، ومنها ما كان يقع في الإقليم بين أهل الريف نتيجة السخط من الضرائب والتأثر بالعزل، وغضب بعض المرابطين." (سعد الله، أ. 1986: 15، 16)

وتعرض شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون في كتابه "منشور الهداية" إلى نماذج من هذه الاصطدامات بين بعض شيوخ التصوف والسلطة العثمانية، منها ثورة سيدي يحي بن سليمان الأوراسي التي وقعت في القرن 10ه/16م في جبال الأوراس، اشتغل سيدي يحي الأوراسي بالتصوف وأسرار الحروف وله تقاييد في عدة مسائل فقهية ونحوية وبيانية، تصدى للإفتاء بقسنطينة ومدينة الجزائر، كان في البداية صاحب نفوذ لدى الأتراك الذين كانوا "لا يقطعون دونه أمرا". وساءت علاقته بالأتراك العثمانيين، ونقل عنه أنه خلع بيعته للأتراك، ففر إلى جبال الأوراس، وقد جرت حروب بينه وبين الأتراك، انتهت بفشلهم في إلقاء القبض عليه، لكن في الأخير غدر به وتم قتله، وقد استمرت ثورته على يد أخيه أحمد. (الفكون، ع. 1987: 54، 55)

ورغم شهرة صالح باي في قسنطينة فإن عهده لم يخل من ثورات، لا سيما تلك التي قادها بعض المرابطين، وتذكر المصادر أن مرابطين على الأقل قد أعلنا عليه الثورة، أولهما أحمد الزواوي والثاني محمد الغراب. (سعد الله، أ.ج1، 1981 : 217)

وهكذا كانت معظم الطرق الصوفية مصدر قلق للحكام الأتراك العثمانيين في أواخر عهدهم بالجزائر، يخشون بأسها وثورتها، وكثيرا ما هددت كيانهم، فالمتتبع للتاريخ العثماني في الجزائر يدرك جليا كيف استطاعت الطرق الصوفية ببنائها الاجتماعي والهيكلي المنسجم

مع النسق القبلي القائم في الجزائر، أن تعمل كتنظيمات دينية وكجماعات ذات طابع سياسي واقتصادي واجتماعي، وفي الوقت نفسه استطاع هذا البناء أن يفي باحتياجات المجتمع ككل، فالطرق الصوفية ملأت الفراغ الذي كان سائدا في المجتمع الجزائري؛ خاصة في المناطق الريفية المنعزلة عن الحكومة التركية التي أهملت حقها في الرعاية والتوجيه والتعليم، وهنا مثلت تلك الطرق الصوفية أو كادت أن تمثل البديل الوطني لأفراد الشعب الجزائري عن الحكومة التركية، بما تسنى لها من امتداد وتغلغل في النسيج المجتمعي الجزائري في الأرياف والمدن وبين القبائل والعشائر.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- الجيلاني بن عبد الحكم، 1364هـ، المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، دط، تلمسان، مطبعة ابن خلدون.
- الجيلاني عبد القادر، 2002، السفينة القادرية، ط1، بيروت، لبنان، تعليق: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتب العلمية.
- الزياني محمد بن يوسف، 1978، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، دط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعد الله أبو القاسم، 1981، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والإشهار.
- الفكون عبد الكريم، 1987، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
- المزاري الآغا بن عوده، 2009، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع.
- ابن مريم المديوني التلمساني، 1986، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، دط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- محمد بن سليمان الصائم التلمساني (الملقب بالجزولي ق11هـ/17م) ، 2013- 2014، كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين، دراسة وتحقيق: قويدر قيداري، رسالة دكتوراه ، إشراف د/ عكاشة شايف، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، تلمسان.

المراجع العربية:

- آسين بلاثيوس، 1979، ابن عربي، حياته ومذهبه، ترجمة: عبد الرحمن بدوي،دط، بيروت، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم.
- الجيلالي عبد الرحمن، 1982، تاريخ الجزائر العام، ج3، دط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- الحفناوي أبو القاسم محمد، 1991، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، 2، دط، الجزائر،دار موفم للنشر.
- الزوبي ممدوح، 2004، الطرق الصوفية- ظروف النشأة وطبيعة الدور- ط1، دمشق، سورية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعد الله أبو القاسم، 1986، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
- عادل نويهض، 1983، معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط3، بيروت، لبنان، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.
- عناية الله إبلاغ الأفغاني، 1987، جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- فيلالي مختار الطاهر، 1976، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، باتنة، الجزائر، دار الفن القرافي للطباعة والنشر.
- محمد حاج صادق، 1989، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، دط، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية.
- مفلاح محمد، 2008، أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف، شعراء الملحون، دط، الجزائر، دار المعرفة.

المراجع الأجنبية:

- Louis Rinn. 1884. Marabouts et Khouane, Etude sur lislam en Algérie, – Alger- Adolphe Jourdan Librairie éditeurs.